

علاقة الأمير عبد القادر بزعامات العهد العثماني: "الحاج محمد ولد سيدي لعربي" أنموذجا

About the Relationship of al -Amir Abdelkader with the
Ottoman Algeria's Leaders

د. عابد سلطانة^{1*}

¹ كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران 1. أحمد بن بلة، الجزائر

تاريخ الارسال: 2018/04/26 تاريخ القبول: 2018/10/01 تاريخ النشر: 2019/01/16

ملخص بالعربية:

تناول هذه الورقة البحثية علاقة الأمير عبد القادر الجزائري بالزعامات المخزنية الجزائرية ببابك الغرب (الموظفة لدى السلطة العثمانية في الجزائر) بين سنتي 1832-1847م. وهي العلاقة التي لازالت تثير وإلى يومنا هذا، عديد التساؤلات والإشكالات، على مستوى الأستوغرافيا الوطنية.

موضوع البحث سنتعرض فيه لعلاقة الأمير عبد القادر بخليفة المخزن الشرقي لبابك الغرب الحاج محمد ولد سيدي لعربي، وهي العلاقة التي اختزلها الأستوغرافيا الوطنية في حدود "العمالة" و"الخيانة"، مستبعدة بذلك جملة من الرهانات والسياقات (الجينية-الوجيا-العصبية-الولاء-الانتماء التراثي).

فالورقة هي سعي للبحث في المسكوت عنه وحفر في البنى السياسية والسوسيو ذهنية التي تمكن الباحث من قراءة هذه العلاقة في سياقاتها الموضوعية والتاريخية.

كلمات مفتاحية: تمرد؛ طاعة؛ ولاء؛ مخزن؛ رعية؛ جينيةالوجيا.

Abstract (English):

The subject of This paper Is an approach to the reality of the Relationship between Emir Abdelkader El Djezaïri and the Algerian leader at the Ottoman establishment in West of Algerian (Beylek Elgherb). Between the 1832 and 1847 and during the fight of Emir Abdelkader the french occupation, many leaders of the former Ottoman administration did not accept the new authority of Al Emir and made many troubles, the Algerian historiography describe them as traders and enemy's agent. My study Is a new approach to This kind of conflicts which were between Emir and Haj Mohamed Ouelid Sidi Laribi, who were the responsible of the Eastern Administration in Beylek Algharb, however this paper is search on the political, sociological and mental structures, which permit the researcher to read this Relationship in its contextual and historical contexts.

Keywords : rebellion, Baïia (élection), obedience, leaderships, loyalty, ottoman administration, submission, subjects, genealogy.

*- الباحث المرسل: abed_soltana@yahoo.fr

- مقدمة:

لقد أثارت علاقة الزعامات المحلية المخزنية ببابيك الغرب بالأمير عبد القادر، عديد الأسئلة التاريخية، لحجم التأثير الذي أحدثته هذه الزعامات على تجسيد المشروع السياسي للأمير عبد القادر، فالبرغم من تقارب ومهادنة الطرفين غداة مبايعة الأمير سنة 1833م، ونزوع الزعامات المخزنية على الالتفاف حول مشروع المقاومة، إلا أن هذه الزعامات سرعان ما بدأت في السعي للحفاظ على مصالحها وامتيازاتها التي أصبح المشروع السياسي للأمير عبد القادر المؤسس على تجسيد مركزية الممارسة لسياسة، بعيدا عن كل تمايز سياسي واجتماعي وديني. فلقد سعت هذه الزعامات إلى نقض البيعة، والتمرد ضد سلطة الأمير الشاب، محاولة العودة إلى العهد السابق، متحالفة مع الكراغلة وبقايا الأتراك تأسيس سلطة موازية لسلطة الأمير عبد القادر، إلا أن هذه المحاولات لم تنجح أمام فاعلية الشرعية التي تأسست عليها سلطة الأمير عبد القادر، ثم عادت هذه الزعامات في سعيها للحفاظ على امتيازاتها، إلى التقرب من الفرنسيين وتقديم الخدمة المخزنية لهم، من خلال معاهدة "الكريمة" سنة 1835م، وهي المعاهدة التي كرست القطيعة النهائية بين زعامات العهد التركي ببابيك الغرب والأمير عبد القادر، والخروج النهائي لها من تسيير المشروع المقاوماتي للأمير عبد القادر.

يمثل الحاج محمد ولد سيدي لعربي أنموذجا لأهم وأبرز سلطة مخزنية بالخلافة الشرقية، تصادم بها الأمير عبد القادر صداما أثار العديد من الأسئلة والإشكالات، وذلك من حيث أن هذه الإشكالية لم تحض بعد بمقاربات معمقة في الأسطوغرافيا الجزائرية.

فالمواجهة بين الزعامتين، لم تنجل بعد كل رهاناتها التاريخية والاجتماعية والسياسية، خاصة أنها مواجهة جمعت سلطتين متناقضتين مبدئيا، سلطة الأمير عبد القادر المؤسسة على شرعية "البيعة"، وسلطة ولد سيدي لعربي المؤسسة على "الولاء" و"العصبية القبلية".

- العرض:

ينتمي الحاج محمد ولد سيدي لعربي إلى أهم عائلة مخزنية بالخلافة الشرقية لبابيك الغرب، هي عائلة "أولاد سيدي لعربي"، والتي كانت تتحكم في المجال الجغرافي الممتد بين وادي سلي شرقا ومنطقة "البطحاء" غربا، وجبال "الظهرة" و"الونشريس الغربي" و"المحال" و"مينة". إن ما يسترعي الانتباه على عائلة أولاد سيدي لعربي خصوصية انتمائها إلى أكبر طريقة صوفية بالخلافة الشرقية وهي الطريقة "البوعبدلية"، إحدى أهم فروع الطريقة الشاذلية الدرقاوية، والتي كانت تستقطب ولاءات عديد القبائل إلى سلطتها الروحية والدينية.

يصف صاحب "ياقوتة النسب الوهاجة وفي ضمنها التعريف بسيدي محمد بن علي مولى مجاجة"، البوعبدليين أولاد سيدي العربي: "ومن شرفاء الشهرة أيضا أولاد سيدي بوعبد الله الشريف وهم أولاد سيدي لعربي فهم سادات وسلالة آل عبد مناف حازوا شرف الحسب والنسب وتطاولوا في الثروة على كل من كسب واحتسب مضت في القديم منهم ملوك وخلفاء وأمراء الدنيا والدين تجني إليهم الجبايات من كل قبيل وتخدمهم عرب سويد المخزومي جملة من غير تفصيل وملوك الأتراك تعظمهم جيلا بعد جيل غطت صولتهم كل صولة وحققت نجدتهم كل دولة ملكوا بزعاماتهم وعصبتهم الأحرار والعبيد وقهروا بسطوتهم كل جبار عنيد، ركبوا الأكتاف ومنحوا الأعراف ومروا الأخطاف ومن خفض لهم الجناح عزوا وارتفع ونال ما نالته وكذا من افتخر بهم افتخروا ومن انتصر بهم انتصر أغنوا محل قاصر من صادر وراد يرحمون كل غريب ويصلون الأقصى والغريب، للعلماء في أموالهم الخط الوافر والمساكين من عطاياهم الغني التام للمسلم والكافر تقدمهم الناس بالهدايا وتشد إليهم رجال المطايا لم يجنب ركب الوفد إذا جاء هو المرفد السخاء في أسلافهم وفيهم جيلة

" (أبو حامد المشرفي، مخطوط ياقوتة النسب: 61، 62؛ العربي المشرفي، 2012: 91، 92).

من خلال هذا الوصف يقدم لنا "المشرفي" نموذجا عن تحول عائلة مرابطية من الحالة المرابطية إلى الحالة المخزنية، فتزعم أولاد سيدي لعربي للخلافة الشرقية أواخر الحكم العثماني، بعيد الفتح الثاني لوهران سنة 1792م، هو في الواقع محصلة لتراكم رأسمال رمزي فعال يتمثل في "النسب الشريف" و"البركة" للعائلة البوعبدلية. هذا مما يتيح لنا اقتراح فرضية أن السلطة الزمنية القهرية تستمد شرعيتها وفعاليتها، من قوة وفعالية الرهان الديني أساسا (البركة، والجينولوجيا).

فقبل أن تضطلع عائلة أولاد سيدي لعربي بالشؤون المخزنية وتسير العنف، فهي في واقع الحال كانت امتدادا للعائلة المرابطية " أولاد سيدي بوعبد الله المغوفل"، والتي كانت "تحوز الشرف والنسب وتتطاول في الثروة على كل من كسب واحتسب" (أبو حامد المشرفي، مخطوط ياقوتة النسب: 61، 62؛ العربي المشرفي، 2012: 91، 92).

إن تراكم "الحسب" و"النسب" أي الجينولوجيا والثروة (رأسمال رمزي ورأسمال مادي) مؤداهما النزوع نحو السلطة الزمنية القهرية، فزاوية سيدي لعربي، تأسست في البدء كفضاء ديني، يستقطب طالبي العلم والحماية والوساطة والتحكيم، لما كانت تحوزه من رساميل رمزية، مما جعلها تضطلع بوظيفة التوسط بين القبائل وسلطة البايلك.

فالأتراك وغداة استقرارهم بالجزائر، سعوا جاهدين إلى احتواء الطرق الصوفية والزوايا لمراقبتها، حتى لا تتحول إلى خطر يهددها، وذلك بالاعتراف رسميا بنفوذها وتأثيرها داخل المجتمع المحلي القبلي، وبتكليفها بوظائف لصالح البايلك (حليم: عبد الجليل: 2009، ص 12)

إن تمتع عائلة أولاد سيدي لعربي، ومنذ زمن الحكم العثماني بوضع اجتماعي وسياسي مميز، دفع بالأمير عبد القادر غداة مبايعته مباشرة في 28 فبراير 1833م، إلى احتواء مخزن ولد سيدي لعربي، لصالح مشروعه السياسي الوحدوي Centralisateur، خاصة إذا علمنا أن الأمير كان بدوره، حمالا لمشروعية فعالة ومؤسسة على رأسمال رمزي نافذ، كالجينياالوجيا (النسب الشريف) والبيعة (إمارة المؤمنين).

قبل أن نفصل في تحليل علاقة مستويات علاقة الأمير عبد القادر بولد سيدي لعربي يبدو من المنهجي استقراء حجم الرهانات التي استحكمت في مآلات هذه العلاقة من منظور الأسطوغرافيا الوطنية، والتي سنتناولها من خلال ثلاث مواقف لمؤرخين جزائريين تعرضوا في كتاباتهم لوصف أطوار هذه العلاقة، وهم كل من المؤرخ مصطفى الأشرف، والأستاذ إسماعيل العربي، والشيخ عبد الرحمان الجيلالي.

فمصطفى الأشرف من خلال كتابه الموسوم بـ "الجزائر الأمة والمجتمع" (Lachref Mostafa, 1979: 54) يضع صراع الأمير مع ولد سيدي لعربي في إطار أفق ماركسي، مختزلا إياه في صراع بين الأمير و"الإقطاعيين ومرتزقة الأتراك" (Lachref Mostafa, 1979: 54)، فولد سيدي لعربي في نظره ليس إلا "إقطاعي" و"مرتزق" من "مرتزقة الأتراك"، هذه القراءة لمصطفى الأشرف أجدها في رأي المتواضع تغيب الأفق التاريخي والموضوعي في قراءة هذا الصراع، مكتفية بالأفق الإيدولوجي فقط.

أما المؤرخ إسماعيل العربي ومن خلال كتابه الموسوم بـ "المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر" (إسماعيل العربي، 1982: 219) يرى أن تمرد ولد سيدي لعربي، مجرد مناورة ليحصل بها على اعتراف فرنسا بزعامته: "لأن فرنسا لم تعترف بزعامتهم مثل ابن المخفي رئيس البرجية وسيدي لعربي وأن هؤلاء نشروا دعاية أن الأمير قد تخلى عن الحرب وأن ليس له الحق في الزكاة والضرائب" (إسماعيل العربي، 1982: 11).

في حين يذهب الشيخ عبد الرحمن الجيلالي في كتابه الموسوم بـ "تاريخ الجزائر العام" (عبد الرحمن الجيلالي، 1994: 92) إلى قراءة هذه العلاقة في إطار "العصبية"، "حب الرئاسة" و"الغدر" و"التباغض" قائلا: "أتباع سيدي لعربي من أهل شلف في آخرين من المخالفين عليه، عصبية بغرب الجزائر فقواومتهم حتى رجعوا إلى الطاعة في ربيع الأول 1250 هـ الموافق لـ 11 جويلية 1834 ثم خصص أتباع سيدي لعربي بحركة عليهم في مصب الشلال الأسفل وقبض على رئيسهم فأسروهم يوم 23 جمادى الأولى 1250 هـ الموافق لـ 28 سبتمبر 1834 م، ثم توفي بعد ذلك في السجن" (عبد الرحمن الجيلالي، 1994: 92).

أما السبب في توتر العلاقة بين الطرفين فهو أن: "عصيانهم قائما على التحاسد والتباغض القبلي الناشئ عن الرياسة" (عبد الرحمن الجيلالي، 1994: 92). ومع ذلك فإن الشيخ عبد الرحمن الجيلالي

يدفع بسبب آخر في هذا الصراع وهو على الممانعة في أداء الضريبة: "ومنهم من تأبى عن دفع الضريبة الإضافية التي فرضها الأمير عبد القادر أثناء فترة القتال فقالوا كبني عامر بأن لا يوجد مبرر لها بعد توقيع الهدنة وإبرام الصلح" (عبد الرحمن الجيلالي، 1994: 92).

إن ما يمكننا ملاحظته على هذه النماذج من الأسطوغرافيا الوطنية، أنها نماذج لم ترق هذه الكتابات لم ترق إلى قراءة الصراع بين الأمير عبد القادر والزعامات المخزنية الموروثة عن زمن الحكم العثماني في الجزائر، قراءة تضعنا في حقيقة ما وقع، بمعنى عدم اختزال هذا الصراع في حدود "العصبية" و"العمالة" و"التباغض" وهذا ما يفقد "الحقيقة" التاريخية أبعادها ورهاناتها الواقعية والموضوعية. تجمع المصادر التاريخية التي أمكننا الإطلاع عليها على المكانة التي كان يحظى بها ولد سيدي لعربي غداة المبايعة الثانية للأمير عبد القادر، فصاحب "المذكرات" يؤكد على أن الأمير عبد القادر كان مقدرًا لخصوصية مكانة الحاج محمد ولد سيدي لعربي، فثبته في منصبه السابق كخليفة للمقاطعة الشرقية، وذلك باستشارة من والده الشيخ سيدي محي الدين: "إن الذي تولى تحرير رسم البيعة التعيين هو الأديب الفصيح البليغ السيد محمد بن الطاهر من أولاد بن حواء القاطنين بين الفج مينا". ليضيف قائلاً: "شرع في السفر ليأخذ عن البعدهاء فابتدأ رحلته إلى مواطن مينا وشلف، وما ولاها من لا محال وغيرهم، فجاء كل رئيس وافد بمن معه من قبيلته وفد الحاج محمد بن سيدي عربي وكان الوالد سافر معه في تلك المدة فاستشاره في ولاية ابن عربي، فولاه خليفة على تلك النواحي كلها، إلى وادي الفضة" (مذكرات الأمير، 1998: 143، 145).

ثلاثة نقاط تسترعي الانتباه في هذه الرواية وهي:

أولاً:

أن أول خرجة للأمير عبد القادر مباشرة بعد مبايعته كانت نحو المنطقة الشرقية (الشلف، مينا، المحال وما والاها) وهذا في رأينا المتواضع يعكس العمق الإستراتيجي للمنطقة الشرقية اجتماعيا واقتصاديا وعسكريا.

ثانياً:

خروج الأمير إلى القبائل الشرقية وحرصه على أخذ البيعة بنفسه من زعمائها، يعبر في الواقع عن سعيه إلى تنظيم مجال سلطته السياسية على مبدأ ترابي (الحدود الجغرافية)، وما يترتب عن أخذ هذه البيعة من خلق شبكة إدارية وجيش منظم لتفقد هذا المجال السياسي الترابي.

ثالثاً:

الدور الفعال للشيخ سيدي محي الدين في تثبيت الحاج محمد ولد سيدي لعربي خليفة، فسيدي محي الدين كان من دعاة الاستمرارية فيما تعلق بتثبيت الزعامات المخزنية السابقة، وعدم إحداث أية

قطيعة معها، إدراكا منه لمكانتها وثقلها على المستوى الاجتماعي (فاعلية الولاءات والعصبية) والسياسي (تحالفها وتمرسها في تسيير شؤون البايك).

"وقد أوصاك أبوك على المخزن بوصية التوفيق، ألم تعلم يا سيدنا إن خمسة أعراش يكون الغزو بهم لا عليهم، وهم الدواير، والزماله، والغرابه، والبرجية، والمكاحلية، وما من أولاد سيدي عربي قد أضيف إليهم لأنهم المخزن الحقيقي وغيرهم أتباع لهم في القولة الشريفة، فالأربعة الأولى مخزن الباي والخامس مخزن الخليفة هذا هو الترتيب في دولة الأتراك ... " (بن عودة المازري، 1988: 114).

أما صاحب "طرس الأخبار..." فيؤكد على ما ذهب إليه المازري من أن الشيخ سيدي محي الدين، كان يشير على ابنه عبد القادر بالاعتماد على المخزن عوض المرابطين: "وقد توافر الخبر عن الثقات أنه أوصى ولده لما مات بوصايا منها: إياك ومشورة المرابطين من غريس، إن أدخلتهم في مشورتك خربوا ملكك، وفسدوا حكمك، بل أعرض عنهم وعلمك بأهل المخزن الذين كانوا مع الأتراك يعرفونك التأويل ويكفون عنكم الأقاويل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم" (أبو حامد المشرفي، مخطوط طرس الأخبار: 121).

وعن السبب في ميل الشيخ سيدي محي الدين إلى حسن التعامل مع المخزن العثماني ومراعاته هو موقفه المؤيد للعثمانيين ضد ثوار درقاوة: "ولكن أبوه كان كذلك، ففي زمن دولة الأتراك لما ثار عليهم السيد عبد القادر بن شريف، كان الحاج محي الدين يعقد ثيابه وراء ظهره ويقاقل مع الأتراك حبال حوز الرئاسة وطلب الجاه" (أبو حامد المشرفي، مخطوط طرس الأخبار: 126).

مراحل الصراع بين الأمير عبد القادر والحاج محمد ولد سيدي العربي:

من خلال المصادر (ينظر التعليق رقم: 01) المعتمدة في هذا المحور من البحث فإننا نستطيع التمييز بين ثلاث مراحل هامة في صراع الأمير عبد القادر والحاج محمد ولد سيدي لعربي.

المرحلة الأولى:

وهي المرحلة التي سبقت المواجهة العسكرية بين الطرفين، فصاحب "المذكرات" نجده صامتا عن ذكر السبب في تمرد ولد سيدي عربي مكتفيا: "وإذا بالبرجية ومن ولاهم من القبائل الشلفية إلى العطاف جاؤوا بالخليفة الحاج محمد عندهم في البرج وتنازعوا ألا يتركونا" (مذكرات الأمير، 1998: 148).

عن قدوم الحاج محمد ولد سيدي عربي إلى بلدة البرج، للاجتماع بقدور بن المخفي زعيم البرجية، فالمرجع والكثير من المصادر التاريخية، لا تفصل في حيثيات هذا الاجتماع، عدا ما جاء به صاحب "الياقوتة"، من مبايعة الحاج محمد ولد سيدي عربي زعيما على مخزن البرجية وباقي القبائل الشلفية وما ولاها: "فعند ذلك ترك التوجه للدواير وتبوء عنان فرسه لقتال البرجية فبعثوا للحاج محمد بن

لعربي وبإيعوه فقبل بيعتهم ولم يرد عليه اجتمعوا عليه " (أبو حامد المشرفي، مخطوط ياقوتة النسب: 74، 76؛ العربي المشرفي، 2012: 103).

هذه البيعة للحاج محمد ولد سيدي لعربي من طرف القبائل المخزنية، كانت عمليا نقض لبيعة عبد القادر، والتي كانت محصلة لمراسلات سابقة بين الأمير وولد سيدي لعربي، ذكرها صاحب "المذكرات" بأن ولد سيدي عربي كان قد كاتب الأمير، مهددا إياه بأن "من استخزى بالناس ذل ومن استقل برأيه زل" (مذكرات الأمير. 1998: 148)، فيرد عليه الأمير عبد القادر بـ: "كلام يمجه السمع ويستنقصه الطبع..."، لي طرح التساؤل عن مضمون هذا الكلام الذي يمجه السمع واستنقصه الطبع؟، هل كان كلاما في لا شرعية المهادنة مع الكفار؟، هل كان كلاما في وجوب نقض البيعة، من عدمها؟، هل كان كلاما في عدم شرعية أداء ضريبة المعاونة، من عدمها؟، هل كان كلاما في شرعية العصيان والتمرد من عدمه؟ إن دعوة ولد سيدي لعربي للأمير عبد القادر بعدم الاستئثار والاستفراد بالرأي والاستخفاف بالناس، يبرز لنا حجم الرهانات السوسيولوجية والدينية التي أحدثتها معاهدة ديميشال والأمير عبد القادر، وما لجوء هذا الأخير إلى علماء فاس يستفتهم في مسائل التمرد والعصيان والامتناع عن أداء الضرائب، إلا دليل على وقع تلك المعاهدة على قبائل بابلوك الغرب وقع النازلة.

فعدم تمكن الباحث من الوصول إلى مكاتب ولد سيدي لعربي إلى الأمير عبد القادر، والتي لا تزال مجهولة إلى يومنا هذا، يطرح أمامنا إشكالية وضع المواجهة بين الطرفين في مشروطيتها التاريخية. أما عن مكاتيب ولد سيدي لعربي لزعماء القبائل فإن كل من صاحب المذكرات والسيرة (مذكرات الأمير عبد القادر، وكتاب "سيرة الأمير عبد القادر وجهاده" لمصطفى بن تهايم) يكشفان مضامينها في مكاتيب: "كاتب بها القبائل يحضهم على مخالفة الأمير عبد القادر ونقض الكلمة وعدم الإنقياد، كأهل مازونة ومن ولاهم متم الأعراب الصبحية وغيرها..." (مذكرات الأمير. 1998: 149).

تذكر "المذكرات" أن الأمير عبد القادر كاتب ولد سيدي لعربي وقبائل الشلفية: "يعظم ويناشدهم بتلطف فما زادهم ذلك منه إلا نفورا استكبارا في الأرض، ومكر السيء ولا يحق المكر السيء إلا بأهله". (مذكرات الأمير، 1998: 149)، ولنتساءل عن فحوى مكاتيب الأمير لولد سيدي لعربي والتي لا تزال بدورها مفقودة إلى يومنا هذا، مما يجعل النتائج المتوصل إليها في هذه المقاربة نتائج محدودة ونسبية.

المرحلة الثانية:

وهي المرحلة التي تبدأ بعدم استجابة ولد سيدي لعربي لمكاتيب الأمير، الداعية إلى التلطف والعظة والمناشدة، حيث ستصبح المواجهة العسكرية بين الطرفين أمرا محتوما فيضعها صاحب "المذكرات" في إطار مشروع مؤامرة حيكت من طرف المخزن القديم للإطاحة بسلطة الأمير عبد القادر الفتية: "وإذا بالبرجية ومن القبائل الشلفية إلى العطف، جاؤوا بالخليفة الحاج محمد عندهم بالبرج وتنازعوا ألا

يتركونا نذهب لإخوانهم المذكورين إلا أن يفنوا لأنهم حلف واحد ("مذكرات الأمير، 1998: 149)، يشير هنا إلى دعوة الأمير قبائل الشلفية والبرجية للالتحاق بالحملة التي كان يحضر لها للقضاء على جيش مصطفى بن إسماعيل وكان ذلك بمعركة المهرز في معركة جويلية 1834م.

عن هذا الحلف المخزني يذكر صاحب الياقوتة: "... كذلك أولاد سيدي لعربي فقد كانت لأسلافهم النجدة ... الملك فيها قاهر الرايس الأمجد والفارس المجد السيد حاج محمد بن لعربي على الحاج عبد القادر المذكور يوم جمع الجموع لقتال الدواير الزمالة وبعث لمخزن الأتراك البرجية ومن أنضاف إليهم يتوجهون معه لقتالهم فلم يساعده على قتالهم وقالوا له لنا معهم الإخاء والصحبة قديما و ... هكذا ورضعنا معهم يد الدولة التركية وإخواننا في الدين والطين أنتعصب أيها الأمير بالأخ على الأخ وكتب إليهم قدور بن الصحراوي البرجي للحاج عبد القادر جوابا يرد عليه ما أراده منهم في قصيدة ملحونة :

وَجْهَ الصَّرْفِ عَلِمَا أَخْرَجَ يَا مُحَلَا * وَقَالَ اغْزُوا أَمْتَنَا
قُلْنَا مَا نَغْزُوشُ لَأَوْلَادُ أَسْمَعِينُ * هُمَا خَاوَتْنَا وَخَاوَه فِي الدَّنْيَا
وَلَا جَدَاذُ أَوْجَاقُ مَا نَأَشُو خَيْفِينُ * الثَّرْكُ الطِّبَاقُ يَعْرِفُوا لَقَرَاؤَنَا
كَيْفَ مَا قُلْنَا يَقُولُ غَيْرُ أَمِينُ * اخْنَا حُرْمَ لَهُمْ أَوْ هُمَا حُرْمَ لِينَا
بَنَّا يَزْدُمُوا غَدُوهُمْ فِي الْبَرِينُ * هَآذِي مَا فِينَا وَلَا تَوَاتِي عَلَيْنَا".

المصدر: (أبو حامد المشرفي، مخطوط ياقوتة النسب: 72؛ العربي المشرفي، 2012: 102، 103).
إن فرضية بروز الحلف المخزني الرامي إلى تفويض سلطة الأمير عبد القادر، نجدها تتأكد في كل المصادر التاريخية، خاصة وأن انتفاضة ولد سيدي لعربي وقعت مباشرة بعد أن نجا الأمير عبد القادر، وبأعجوبة من مصطفى بن إسماعيل بموقعة الحنايا في 12 أفريل 1834م، فصاحب كتاب "زهر الشماريخ ..." (أبو عبد الله السليماني: 290) يضع تمرد ولد سيدي عربي كرد فعل مباشر لمعركة "الحنايا": "وتخلص الأمير عبد القادر من بينهم وبعد طلوع الشمس تراجع الناس إليه، وانكف راجعا بهم إلى معسكر، ولما بلغ محمد بن عربي خبر الواقعة أظهر ما كان يخفيه من نبذة طاعة الأمير عبد القادر ..." (أبو عبد الله السليماني: 290)، وكأني بالأمير عبد القادر يقع بين كفي كماشة، مخزن الدواير والزمالة من الغرب ومخزن البرجية وولد سيدي عربي من الشرق، فكانت سنة 1834م، سنة انقلاب زعامات المخزن العثماني على الأمير عبد القادر.

المرحلة الثالثة:

ونقصد بها مرحلة الصدام العسكري بين الأمير عبد القادر والحاج محمد ولد سيدي لعربي، والتي سنعرض لها من خلال المصادر التي بين أيدينا، فيأتي صاحب "المذكرات" على وصفها قائلا: "ولما أن جاء الرسل بغير صواب، ولا مصحوبين بجواب توجهت وجهتنا إليهم ودارت الدائرة وعدنا عليهم وثنينا نحو

حزبهم المتلاشي أعنة الخيل بجيش عرمرم كأنه حامل سيل ثم زدناهم في طلب المسألة والملاطفة فازدادوا إعراضنا ومكانفة فعبأنا الرجل والخيل تعبئة الحروب وصففناهم صف من لا يلين ولا ينوي الحروب ... " (مذكرات الأمير. 1998: 149) إلى أن يقول: "ركبنا خيلنا منهم الظهور ومدافعنا ترمجر بهم وتصيح عليهم بالكور وحرقنا أعشاش قريتهم وقللنا سويف بقيتهم وأخذ الناس ما وجدوه من سلع وافرة فكان غاية حسن الفال في المنافرة ومن الغد زدنا وراءهم واعتمدنا جلاءهم إلى قلعة بني راشد وبعد غد زدنا إلى وادي مينة فألزمناهم الجد المتناشد ... " (مذكرات الأمير. 1998: 149).

أما صاحب "زهرة الشماريخ" فإن وصفه للمواجهة بين الطرفين يبدو أكثر دقة وتفصيلا: "ولما بلغ ابن عربي خبر الواقعة أظهر ما كان يخفيه من نبذة طاعة الأمير عبد القادر وجمع جموع الشلف ممن أجابه من عرب وزناته فنهض بهم إلى نواحي قلعة هواره واستجاب بخليفة قدور بن المخفي وعسكروا قريبا من قصبة البرجية فخرج إليهم الأمير في جيش كثيف من الحشم وبني راشد في الثامن من صفر سنة خمسين ومائتين وألف فهزمهم ودخل قصبة البرج وأضرهم نارا وكانت مقر ابن المخفي وارتحل الأمير إلى القلعة ففي أتباع ابن عربي بمجموعه بوادي مينة، فسار الأمير في إتباعهم وصادفهم القتال فهزمهم أقبح هزيمة وامتلاأت أيدي جيشه من أسلابهم ... " (أبو عبد الله السليمان: 290).

في حين يورد صاحب "الياقوتة" المواجهة بين الطرفين على هذا النحو: "فالتقى الجمعان بمدينة البرج وترك كل واحد لمحلته مقابلا للآخر وما بينهما إلا قرية البرج فاصلة بين المحليين ثم لما أصبح الصباح قامت الحرب بين الفريقين على سباق وحى وطيستها من طلوع الشمس إلى صلاة العصر وانهزمت محلة الحاج محمد بن عربي وغازت الخيل على الخيل مع بعد الهزيمة إلى الليل فلم ترجع خيل الحاج عبد القادر إلا برؤساء البرجية مقيدون بالسلاسل والأغلال ومعهم أمر الأمر وآت القرار والجاه يقال له غالبه ... هكذا ... فقبضتها سجعه ملحونة يقول قائلها:

إِذَا كُتِبَ رَبِّي اُنْجِبُوْ غَالِبًا

وَأَمْعَهَا وَلَدُ الْمَخْفِي مُحَمَّده

وَأُنْجِبُوا زُلَيْبُونَ وَأُمّه عَافِيَا

مُؤَلَّاتِ الرَّاسِ الْمُكْمَدَةِ.

المصدر: (أبو حامد المشرفي، مخطوط ياقوتة النسب: 72؛ العربي المشرفي، 2012: 103).

تبرز الروايات الثلاث حجم الرهان السياسي الزعاماتي في هذا الصراع، والذي لا يمكننا قراءته إلا على ضوء السياسة التي اتبعها الأمير في القضاء على الإمتيازات المتعددة للقبائل المخزنية، وذلك بفرض وتوطيد سلطته الترابية والمركزية على كل القبائل.

هذه "المركزية" التي ستتجسد في أماكن وفضاءات متعددة (معسكر، تاقدمات، مليانة، الزمالة، الدائرة) لا تعدوا إلا أحد أهم الميكانيزمات لتتحكم فعليا في المجال السياسي، فكل مكان كان يقيم فيه الأمير هو في الواقع نقطة استدلال لحركة سلطته في المجال السياسي، وعليه فبعدد هذه الأماكن تعدد نقاط استدلال المجال السلطوي الأمير عبد القادر.

هذا من ناحية ومن ناحية ثانية فإن ما يمكن أن تقترحه علينا هذه الروايات من قراءات، هو فعالية وقوة الرهان الديني والذي يبدو حاسما في هذه المواجهة، في تحديد مواقف أطراف النزاع، ويتجلى ذلك في نقض الزعامات المخزنية لبيعة الأمير عبد القادر الذي "هادن" الفرنسيين، في حين أن شرعية البيعة تأسست مبدئيا على "الجهاد" لا على "المهادنة". "البيعة"، وعليه فإن تثبيت الأمير عبد القادر لضربة "المعاونة" كان بمثابة "النازلة" المثيرة لجملة من الإشكالات الفقهية والشرعية والسياسة، كانت نتائجها المباشرة، إعلان عدد من الزعامات المخزنية وبعض الزعامات الروحية، الدخول في حركات عصيان وتمرد ضد سلطة الأمير عبد القادر.

ومما تبرره هذه الروايات، أيضا أنها تأتي على ذكر القبائل التي كانت في صف الأمير عبد القادر، وتلك التي كانت ضده، فيعدها صاحب "زبدة التاريخ": "قبائل الحشم وقبائل بني راشد، أما القبائل المكونة لجيش ولد سيدي لعربي فهي جموع قبائل الشلف من عرب وبربر زناتة (ينظر التعليق رقم 02) أي قبائل المحال فليته الظهرة والونشريس والتي كان عددها حوالي 31 قبيلة.

المرحلة الرابعة:

تجمع الروايات السابقة على أن جيش ولد سيدي لعربي انهزم أمام جيش الأمير عبد القادر، في المعركة الأولى بـ "قصبة البرج"، وانهزم في المرة الثانية عند ضفاف "وادي مينة"، وهي منطقة نفوذ ولد سيدي لعربي، أما سبب الهزيمتان، فإن المصادر التاريخية تجمع على أن وقع الهزيمة التي ألحقها مصطفى بن إسماعيل بجيش الأمير في موقعة الحنايا، جعل هذا الأخير يولي اهتماما خاصا بتنظيم جيشه وتسليحه بالأسلحة الفرنسية الحديثة، خاصة سلاح المدفعية الذي سيستخدمه جيش الأمير لأول مرة في مواجهة جيش ولد سيدي لعربي (Yver. G, 1912: 308)، (ينظر التعليق رقم 03).

لقد كان من أهم نتائج المواجهتان:

- انهزام جيش ولد سيدي عربي وحليفه قدور بن مخفي ومصادرة خيوله وسي أولاده.
- فرار ولد سيدي عربي إلى مجانة.
- اعتذار القبائل الشلفية للأمير عبد القادر وخضوعها له.
- تعيين الأمير لأبي شاقور وهو من الشخصيات البارزة بقبيلة "صبيح" خليفة للشرق عوض ولد سيدي لعربي.

تجمع الكتابات التاريخية الفرنسية منها والوطنية على أن أسر الأمير عبد القادر لولد سيدي لعربي وقع أثناء معركة مينة، وهذا ما ذهب إليه صاحب المذكرات بأن "لخليفة أي ولد سيدي لعربي جاءه فأشهد عليه مكاتبه المصرحة بخلافته وإتقانه مع المندسين على بند البيعة وسجنه مع خواص مشورته ..." (مذكرات الأمير. 1998: 151).

لكن وخلافا لما ذهب إليه صاحب "المذكرات" عن أسر الأمير لولد سيدي لعربي يذهب صاحب "زبدة التاريخ" إلى تفاصيل أكثر دقة عن عملية الأسر: "وفي هذه الأثناء وفد على الأمير عبد القادر بحضرته الشيخ بلغماري رئيس أهل أنجاد وحليف الدواير السيد محمد بن عربي ومعه صهره محمد بن المراح، رئيس قبيلة أولاد خويدم، قدور بن مخفي، في جماعة من الأعيان والأشراف مظهرين الإنابة والرجوع إلى الطاعة والانخراط في سلك الجماعة، فأكرم الأمير نزلهم وأظهر الاعتناء بهم وبشر في وجوهم وأكثر السؤال عنهم، ولما عزموا الانصراف قبض على الشيخ ابن غماري وابن عربي وابن المراح وهم ما هم فيه في قومهم واعتقلهم وسرح من سرح وهلك ابن عربي وصهره في اعتقالهما، أما ابن الغفاري فإنه فر من حبسه وقبض عليه وجئ به إلى الأمير عبد القادر فأمر بشنقه ..." (أبو عبد الله السليمان: 293).

إن رواية "أبو الأعرج السليمان" تثير مسألتين هامتين: الأولى تشير وبوضوح إلى قدوم ولد سيدي لعربي وصهره بن المراح، وقدور بن مخفي زعيم البرجية، والشيخ بلغماري زعيم أنجاد في جماعة من الأعيان والأشراف إلى حضرة الأمير عبد القادر، لكن دون أن نعرف الأسباب (ينظر التعليق رقم 04) التي جعلت هذه الزعامات المناوئة للأمير عبد القادر تقرر الوفود إليه طلبا للاعتذار والانخراط في سلك الجماعة.

أما المسألة الثانية، فتشير إلى أن ولد سيدي لعربي، لم يؤسر خلال المعارك ضد الأمير عبد القادر، وإنما أسر حينما وفد إليه مع باقي الزعامات المخزنية، مما يرجح لدينا فرضية قدوم هذه الزعامات في إطار مبادرة لإصلاح ذات البين ونبذ الإفساد، مبادرة يكون الأمير وهو صاحب السلطة قد التزم فيها باستئمان هذه الزعامات على أنفسها، لكن الأمير قبض عليهم عندما هموا بالانصراف، فهلك كل من ولد سيدي لعربي وصهره بن مراح وزعيم قبيلة أنجاد بلغماري، وهو الهلاك الذي يرجعه "صاحب المذكرات" إلى انتشار وباء الديج: "وفي هذه الأيام جاء الوباء المسى الديج فمات كثير من الخلق وقتل الخليفة المذكور ..." (مذكرات الأمير. 1998: 151). وهو نفس الذي ذهب إليه القنصل دوماص في مراسلاته، حيث يذكر أن ولد سيدي عربي توفي بسبب وباء الكوليرا الذي انتشر آنذاك وهلك كثير من الناس (Yver. G, 1912: 156).

لقد أثار هلاك هذه الزعامات ردود أفعال جد عنيفة في أوساط القبائل الشلفية، وفي قبائل أنجاد، وهذا ما يظهره صاحب "زبدة التاريخ": "فكان ذلك مما أوغد الصدور ولم يترك للأمير جليسا من أهل الفضل ولا كبير من ذوي النبل وجهه في عينه شؤون" (أبو عبد الله السليمان: 293).

عن النتائج المباشرة لهلاك هذه الزعامات يقول أبو الأعرج السليمان: "وبسبب هذه الإجراءات ظهر ديميشيل أعداء الأمير عبد القادر من أصدقاءه وتمكن من فتح أبواب المخابرة مع الدواير والبرجية وغيرهم من قبائل

الساحل وصار لحكومة الأمير عبد القادر عوامل في داخليتها ودخلت في طور جديد ... (أبو عبد الله السليمان: 293).

فالطور الجديد الذي قصده صاحب "زبدة التاريخ" هو بداية الإتصالات الفعلية بين الزعامات المخزنية وسلطة الإحتلال، فالمخبرة تعني الاتصالات السرية بين دي ميشيل (ينظر التعليق رقم 05) والمخزن.

وهذا ما يحيلنا إلى ضرورة اقتراح قراءة الصراع بين الأمير عبد القادر والحاج محمد ولد سيدي لعربي، في أفق بزوغ سلطة سياسة ذات نزعة مركزية تستند إلى مقومات دينية وشرعية هي سلطة الأمير عبد القادر، وأقول سلطة مخزنية وراثية متشبثة بامتيازاتها جسدها الحاج محمد ولد سيدي عربي بامتياز.

وبناء عليه فإن هذا الصراع لا يمكننا وصفه واختزاله في إطار "العمالة" للفرنسيين أو "الخيانة" للأمير عبد القادر، فكل الوثائق المتاحة، من أرشيف عام ورسعي، ومخطوطات، لا تشير لا من بعيد ولا من قريب إلى أن الحاج محمد ولد سيدي لعربي كان يقود تمرده بإيعاز من الفرنسيين أو في إطار مخطط رسمته إدارة دي ميشال لإثارة الزعامات المخزنية ضد سلطة الأمير عبد القادر. (ينظر التعليق رقم 05)

لقد كانت النتيجة المباشرة "للمخبرة" بين الفرنسيين وزعامات المخزن، تحالف مخزن الدواير والزمالة مع الفرنسيين سنة 1835م (ينظر التعليق رقم 06)، وهو ما عبر عنه أبو الأعرج السليمان بأن: "حكومة الأمير دخلت في طور جديد"، وهو طور انقلاب الزعامات المخزنية على سلطة الأمير عبد القادر.

لقد أثار هلاك الحاج محمد ولد سيد عربي ردود أفعال على المستوى السياسي (تحالف الزعامات مع الفرنسيين)، لكن رد الفعل الشعبي كان أكثر عنفا وحدة، حيث لا تزال الذاكرة الشعبية بنواحي الشلف ومينا وإلى يومنا هذا تستذكر "عذر" الأمير عبد القادر بولد سيدي لعربي، وصهره بن المراح.

لكن لماذا يظل هذا الاعتقاد راسخا إلى يومنا هذا؟

هذا يحيلنا إلى مقاربة رد فعل القبائل الشلفية على هلاك ولد سيدي لعربي، فبرغم من عدم توصلنا إلى أية وثيقة تعبر عن موقف هذه القبائل، إلا أننا سنكتفي بقراءة واستقراء وثيقة هامة للشاعر الشعبي سي الطاهر بن حواء، وهي عبارة عن مرثية شعرية رثى فيها هذا الشاعر صهره الحاج محمد ولد سيدي لعربي عقب هلاكه في سجن الأمير عبد القادر.

والشاعر سي الطاهر بن حواء هو من يصفه صاحب المذاكرات بلقب "الأديب"، "النبه"، "الفصيح" و"البليغ"، وهو من حرر عقد تجديد تعيين ولد سيدي لعربي خليفة للشرق، فكان أبرز شعراء الأمير عبد القادر، وذلك من خلال نظمه لعدة قصائد في مدح الأمير وإنجازاته، لكن تبقى منظومته التي رد بها على شاعر البرج الشهير ولد محمد النقابي الذي هجا الأمير عبد القادر وحط من قدره في شؤون السياسة وقيادة المقاومة، وكان هذا يعبر عن ثابتة في مواقف الزعامات المخزنية من رجال الروايا والحضرية، قائلا:

مَا شَفْنَا سُلْطَانًا جَا مَا الرَّأْيَا * مَا شَفْنَا حَضْرِي أَتَقَيْدُ.

المصدر: (بن عودة المازاري، 1988: 117)

لكن سي الطاهر بن حواء، سينتصر للأمير عبد القادر بمنظومة في مدحه، مطلعها:

يَا مَنْ ذَرَى أَشْ مِنْ نَهَارِ سُلْطَانِي مُبَارَك * مَفْرُوحٌ بِالْمَسَرَاتِ وَالْهِنَا مَبْرُوكٌ
إِلَى أَنْ يَقُولَ فِي الْأَمِيرِ عَبْدِ الْقَادِرِ:

حَيْثُ سُنَّةُ الدِّينِ فِي الزَّمَانِ الْهَالِكِ * نَقْمَةٌ لِمَنْ طَعَى يَا عَذَابُ مَنْ بَغْضُوكُ
جَفَارُ سَابِقَةِ أَرْسَامِهَا لِفَاتٍ بَخْبَرِكُ * تَوَارَخَ الْعَرَابِيُّنَ وَالْعَجَمُ ذَكْرُوكُ
عَبْدُ الْقَدِيرِ عَبْدُ الْعَزِيزِ عَبْدُ الْمَلِكِ * سَادَاتُ الْبَصِيرَةِ رَوَاؤُ مَا مُلُوكُ
بِالْوَفْقِ جَمَعَ الْجَمْعَ لِرَفِيعِ مَقَامِكَ * الْقَطْبُ وَالْعُوثُ لِمَزَادَةِ دَفْعُوكُ
وَرَثْتُ كُلَّ مَوْرُوثٍ مُجْدٍ سَابِقُ قَلْبِكَ * أَسْلَاقُكَ الْكَرِيمَةُ بُنُورُهُمْ لَخَطُوكُ
النَّاسُ كُلُّهُمْ يَجْمَعُهَا عِبِيدُ الْمَالِكِ * مَنْ خَشِيَهِ الْحَسَدُ وَالْمَنَافَقَةُ تَهْمُوكُ
ثم يختم سي الطاهر بن حواء هذه المنظومة (تقع في 31 بيت) بالدعاء للأمير قائلا:
نَطْلُبُوكَ رَبِّي يَبَارِكُ لَنَا يُزِيدُ فِي عُمْرِكَ * وَاعْمَارُنَا مِنْ الْمَوْتِ بِالْفَدَا يُفِيدُوكُ
وَالسُّتْرَ لِيكَ وَالسُّتْرَ لِلْفُحُولِ أَصْحَابِكَ * هَجَرُوا بُدِيَهُمُ الْأَهْلَ وَالْوَطْنَ مَتْرُوكُ
المرجع: (Cour. A, 1918: 458, 493)

لقد كان للشاعر سي الطاهر بن حواء، مكانة مميزة في محيط الأمير عبد القادر: "وقد تصدى ابن حواء لخصوم الأمير، ولم يكن شاعر قبيلة وإنما كان شاعر جهاد وأمير وفكرة" (أبو القاسم سعد الله، 1998: 316).
إن هلاك الحاج محمد ولد سيدي لعربي، دفع بالشاعر سي الطاهر بن حواء إلى الظهور كشاعر "قبيلة" و"عصبية" وليس شاعر "فكرة" و"جهاد"، فمرثيته تبقى رد الفعل الوحيد الذي وصلنا، ومن خلالها يستطيع الباحث أن يحيط ولو جزئيا وفي حدود معينة بحيثيات قدوم ولد سيدي لعربي على الأمير عبد القادر وظروف هلاكه مع صهره بن مراح وتداعيات ذلك على المستوى الاجتماعي والسياسي.

يستهل شاعرنا مرثيته بالتعبير عن الأثر النفسي الذي تركه فيه هلاك ولد سيدي لعربي:
شَيْءٌ نَازَ قَلْبِي وَيْنُ وَيْنُ الرِّيحِ النُّجَالِ * فَحَلَّ الْفُحُولُ حَمَازَ غَاسٍ أَخْيَالُوكَا
الْحَزْنَ وَاجَبَ عَلَيْنَا سُيُورُ الْجُمَالِ * انْطَوَى أَعْلَامُنَا وَأَنْدَرُ مَنْ خَيَالُوكَا
وَالْغَرْبُ زَهَرَتْ نَجُومُهُ وَزَجَّ لَوْ الْحَالِ * وَالشَّرْقُ صَدَّ حَرَمَهُ وَلَكِنْ هَلَاكُوكَا
المرجع: (المهدي البوعبدلي، 1983: 146)

يبدو هنا وبوضوح أن شاعرنا يضع واقعة "الهلاك" في إطار صراع بين الغرب وهنا يعني به منطقة "غريس"، والشرق ويعني به منطقة نفوذ ولد سيدي عربي لنواحي "شلف ومينا"، بمعنى أن الصراع ما هو إلا محصلة لرهانات قبلية وعصبية بين الشرق والغرب، عكس عمق الرهانات الاجتماعية والسياسية بين شرق البايك وغربه.

ثم يمعن الشاعر في وصف هلاك ولد سيدي لعربي:

مَاتَ الْعَقِيدُ مُحَمَّدٌ غَيْرُ بِلَا قَتَالِ * وَلَا عَلَيْهِ هَيَلَاتٍ اطموم ايشَالُوكَا
وَلَا افْتَاتَتْ فُرْسَانُهُ بَدَقِ النُّصَالِ * قَعْدُوا مَحْيَرِينَ اِيْمَانِ وَأَشْمَالُوكَا

الْأَمَانُ وَصَلَهُ لَشَمَايَتْ عَزَّ الدَّلَا * طَاقُوا بِغَيْرِ حَقِّ اَمَقْدَرِ مَقْتَالُوا
قَتْلُوهُ مُوتٌ غَفْلَةً مَا هُوَ شَيْءٌ بِالْقَبَالِ * فِي دِيَارِ مَظْلَمَةٍ مَتَوَقِّ بِاَكْبَالُوا
المرجع: (المهدي البوعبدلي، 1983: 146)

هنا يشير سي الطاهر بن حواء صراحة إلى الأمان الذي وصل سيدي عربي من الأمير عبد القادر، الذي لم تأت على ذكره المصادر التاريخية والمراجع التي بين أيدينا، وهو الأمان الذي لم يحترم أيضا، فالشاعر يعتبر أن ولد سيدي عربي قتل غدرا مكبلا في سجنه، وعليه فإن هذه الميثية هي المصدر الوحيد الذي يشير صراحة إلى أن قدوم ولد سيدي لعربي على الأمير عبد القادر، إنما كان استجابة لعهد أمان لم يلتزم به الأمير اتجاه الزعامات المخزنية (ولد سيدي عربي، وبلغماري).

يستمر بن حواء في مريثته ليضع هلاك صهره ابن عربي في إطار عصبية قبلية واضحة قائلا:
مَدُّوا أَيْدِيَهُمْ غَرِيسٌ وَعَمَلُوا مَا ابْغَاؤُوا * فِي الشَّرْقِ ذِي الْمَغْرَةِ وَجَرِيْمَةً كَانِيَا
الْجِبَالِ شَوْمُوا طَاحُوا وَأَمْسَ أَهْلَهَا اَعْلَاؤُوا * وَلَى الْجَزَانِ يَأْكُلُ تُعْبَانُ اَغِيَاَنَا
المرجع: (المهدي البوعبدلي، 1983: 146).

وهذه "كناية" عما كان يمثل ولد سيدي عربي "الثعبان" بالنسبة لأنصاره، لحد وصف أعدائه بالضفادع (الجران)، فبعد موت ولد سيدي عربي لم يعد للحياة طعمها الذي كان من قبل:
أَمْنِيْنٌ كَانُ عَمَرُ اَنْجُوْعُوا مَا اَدْوَاؤَا * وَأَمْنِيْنٌ مَاتَ مُحَمَّدٌ زَالَ اَهْنَاْنَا
اَخْشَاشُ الْأَرْضِ طَلَّتْ وَاتَّعَالَتْهَا اَعْوَاؤَا * وَالصَّيْدُ ذَلَّ مَا قَعَدَتْ فِيْهِ اَخْشَاْنَا
اَنْعَلَمُوا الْحُكُومَةَ فِيْنَا مِنْ اِلْسَوَاؤَا * وَزَمَاؤَا فِي الْجَبَلِ دَارَ فِيْنَا دَارَ فِيْنَا حَالَا
قَتْلُوا بِغَيْرِ حَشْمَةٍ وَاسْقَاؤَا إِلَى اسْقَاؤَا * وَلَى الْمُخِّ فِي الْكَعْبَةِ يَا فُطَاْنَا
مَاتَ الْعَقِيْدُ مُحَمَّدٌ وَاخْصَالُوا بِقَاؤَا * فِي كُلِّ نَاحِيَةِ الْأُذُنِ اَمْلَاْنَا
بَخَزَ الْجُوْدُ أَوْ نَجَدَا مِنْ كَيْلُوا اِزْمَاؤَا * اسْقَى السَّوَاخِلَ مَا يَهْدُدُ عَطْشَانُ ... الخ.
المرجع: (المهدي البوعبدلي، 1983: 146).

لقد حاول الشاعر سي الطاهر بن حواء من خلال هذه الميثية، إثارة الروح العصبية والدعوة إلى الانتقام، على اعتبار أن قبائل غريس أول ما بدأت تتعلم الحكم، ها هي "تتعلم الحكومة فينا"، بالفتك بالحاج محمد ولد سيدي لعربي.

إن هلاك الحاج محمد ولد سيدي لعربي عكس تجذر الرهانات الاجتماعية والعصبية، وعمقها التي كان يتحرك فيها المشروع السياسي المركزي للأمير عبد القادر، فهذا الأخير وبالرغم من تبرئته من تهمة قتل (ينظر التعليق رقم 07) ولد سيدي لعربي: "لما علم بموته تحقق الأمير بأنه توفي بوباء الكوليرا فكان أن ارتحل الأمير بنفسه إلى عائلة ولد سيدي لعربي وتبرأ من تهمة القتل مقدما العزاء لأفراد أسرته".

قام الأمير بتثبيت ابن سيدي عربي وهو شعبان ولد سيدي لعربي، بقبائل الظهرة والأمعال، حيث يأتي على ذكره القنصل دوماص في مراسلاته سنة 1839 م؛ كأحد أبرز الأبناء على مطامير ومخازن الأمير بنواحي الشلف والظهرة.

عند خرق الفرنسيين لمعاهدة التافنة سنة 1839 م التحق شعبان ولد الحاج محمد ولد سيدي لعربي كخليفة الشرق في المخزن الفرنسي بقيادة الماريشال "بيجو"، مشاركاً في غزوات 1841-1843 م التي شنها على قبائل مجاهر، فليته، بني أوراغ، وبني مسلم، مما كانت له آثار جد وخيمة على المقاومة، والمشروع السياسي المركزي للأمير عبد القادر.

- خاتمة:

في ختام هذا العرض يجد الباحث نفسه أمام إشكالية إدراك الزعامات المحلية ومن وراءها القبائل، لحقيقة الانتماء إلى حقل ترابي أوسع، كانت تمثله تجربة الأمير عبد القادر، وبين حقيقة الانتماء إلى مجال أو حقل ترابي ضيق كالدار أو القبيلة (التحالف القبلي).

فمرثية سي الطاهر بن حواء تبين بأن الشعور الوطني كان شعوراً لا يزال يكتنفه الغموض، والضبابية في أوساط المجتمع الريفي بالخلافة الشرقية، فهل معنى ذلك أن مجتمع الخلافة الشرقية؛ هو مجتمع شتات لا تربطه أية علاقة بسلطة الأمير عبد القادر، عدا العلاقة الرمزية الدينية التي أسستها عملية البيعة؟

هذا التساؤل يحيلنا إلى استقراء خصوصية المجال السياسي لسلطة الأمير عبد القادر، وهو المجال الذي امتاز بثنائية الانتماء إلى الوحدة الترابية المحلية (العرش، الدوار، التحالف القبلي) والانتماء إلى الوحدة الروحية الثقافية (الأمة الإسلامية)، والتي سعى الأمير إلى تجسيدها من خلال عقد البيعة.

هذا وقد لعب واقع الإحتلال الفرنسي لبابلك الغرب دوراً محورياً في الدفع بالمشروع الأميري إلى تنظيم مجاله السياسي على مبدأ ترابي جغرافي (الحدود الجغرافية لسلطة الأمير عبد القادر)، ونلمس ذلك من خلال الحركات والغزوات التي كان يشنها الأمير وجيشه ضد القبائل المتمردة، والثائرة على سلطته (عصيان ضريبي، نقض البيعة)، كما نلمس ذلك أيضاً في تعيين الأمير للزعامات وتفقدتها وخلق شبكة إدارية، والحرص على أخذ البيعة من كل قبيلة في الخلافة الشرقية وبشكل مكتوب، كل هذا يبرز لنا إلى أي مدى حاول الأمير عبد القادر التحكم في مجاله السياسي الترابي، كما يبرز أيضاً حجم المشاكل والتعقيدات السوسولوجية والسياسية والرمزية التي حالت بين التصور الديني الثقافي (الجهاد، البيعة، الأمة) للسلطة، والتصور السياسي الترابي للسلطة (الحدود الجغرافية، مراقبة وتسيير العنف).

إن هلاك الحاج محمد ولد سيدي لعربي عكس عمق وتجزر الرهانات العصبية والاجتماعية، التي كان على الأمير عبد القادر التعامل معها في لحظة تاريخية، شهدت انهيار السلطة المركزية (العثمانيين) وظهور الإحتلال والمقاومة كواقع سياسي وعسكري جديد.

قائمة التعليقات والشروح:

1. نشير هنا إلى مذكرات الأمير عبد القادر، مذكرات مصطفى بن التهامي، كتاب زبد التاريخ وزهر الشماريخ، كتاب ياقوتة النسب الوهاجة، كتاب طلوع سعد السعود، وكتاب طرس الأخبار.
2. عكس ما ذهب إليه الأدبيات الاستعمارية، فإن جموع شلف كانت تتكون من العرب والبربر زناتة وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه سابقا من أن إثنيات مجتمع الخلافة الشرقية كانت مندمجة مع بعضها البعض وكانت تتحرك في إطار التحالف القبلي ولم تكن هناك أية قطعية بين العرب والبربر، وهذا ما يؤكد على العمل الجبار الذي قام به الصلحاء بالمنطقة.
3. حسب القنصل دوماص فإن انتصار الأمير على منائيه من الزعامات المخزنية يرجع إلى الدور الذي لعبه ضابط الليف الأجنبي الألماني estranger جيسنغر المدعو حميدو في تنظيم جيش الأمير عبد القادر بطريقة حديثة و إدخاله لسلح المدفعية في معارك الأمير عبد القادر، ينظر: (Yver, G.1912: 156). كذلك نجد صاحب "زبد التاريخ" يؤكد على الدور الذي لعبه ديميشال وقنصله لدى الأمير عبد الله عصبون في تنظيم الجيش وتزويده بالأسلحة الحديثة والمدربين: "وعندما هدأت الفتن باستكانة الخارجيين ظهر للأمير أن يتخذ جندا منظم يغنيه عن الحشود والجموع ويتفرغ للنظر في شأن تكثير عدده واستكمال عدته وبلغ ذلك الجنرال دي ميشال فاستراح لها وأمر وكيله بحضرة الأمير بمساعدته وإعطائه الآراء في تحسين وترتيب هذا الجند وتكثير مدده وتقليمه وتدريبه وأرسل من طرفه معلمين ماهرين ومقاراً من الضخائر الحربية، وقال أن الأمير بصدد القيام بأعباء الملك ولا يتم له إلا بالعاكر المنظمة والجيوش المدربة وأما الحشود والجموع غير المنظمة فلا تجدي نفعا ولا تستطيع جلبا ولا دفاعا فعجب الأمير وأهل بطانته من نصائح الجنرال ومساعدته وعدوا ذلك من مبادئ الإنسانية والرغبة في دوام المسالمة، ونظم الأمير هذا الجيش إلى ثلاث فرق، فرقة المشاة وفرقة الخيالة وفرقة المدفعية ..."، ينظر، (أبو عبد الله الأعرج السليماني: 292، 293).
4. لقد منحت معاهدة دي مشال وضعا إستراتيجيا للأمير عبد القادر فكل من دي ميشال وعبد الله عصبون دفعا بالمشروع السياسي للأمير، بتنظيم مجاله الترابي وذلك بالسيطرة على القبائل المناوئة، فزعامات المخزن عجزت عن استمالة ديميشال ضد الأمير، هذا الواقع جعلها تعود من جديد إلى الأمير عبد القادر والجماعة حفاظا على مصالحها وإمتهازاتها، خاصة بعد هزم الأمير عبد القادر لجيش مصطفى بن إسماعيل في معركة المهرارز ولجوء بن إسماعيل إلى الكراغلة بمشور تلمسان.
5. عندما هزم الأمير عبد القادر ولد سيدي لعربي بمعركة "مين"، كان الجنرال دي ميشال أول المهنيين على هذا "النصر" للأمير عبد القادر، في رسالة يصف فيها ولد سيدي لعربي بالزعيم و"الخائن"، و"الطموح" الذي انسحب من المعركة بطريقة مهينة، ويضيف دي ميشال أنه ومن شدة فرحته لهذا الانتصار، أمر مدفعيته بإطلاق طلقات. (زوزو، عبد الحميد، 2010، ص 287).

6. خلال سنة 1835م وغداة سقوط مدينة معسكر التحق محمد المازري بإبراهيم بوشناق باي مستغانم في منصب خليفة للباي، كما التحق قدور بن مخفي ومخزنه بالفرنسيين في نفس السنة، أما شعبان ولد سيدي العربي سنة 1840م عين كخليفة للشرق في المخزن الفرنسي.

7. هلك ولد سيدي العربي، كما هلك سيدي أحمد بن طاهر البيطوي أثناء غياب الأمير عن معسكر، مما طرح لدينا فرضية أن بطانة الأمير عبد القادر كانت تقوم بعدة تجاوزات أثناء غيابه وهذا ما ذهب إليه صاحب "زبدة التاريخ" و"الشيخ المهدي البوعبدلي": "إلا أن بعض أفراد حاشيته كثيرا ما كانوا يتصرفون تصرفات مرتجلة فهل يمكننا اعتبار هلاك ولد سيدي عربي من ضمن هذه التصرفات المرتجلة لهذه البطانة". ينظر: (المهدي البوعبدلي، 1983: 147).

الببليوغرافيا:

- الأرشيف:

-Archives du Ministère De la Guerre. Correspondences Gènerales, 1H33: Province d'Oran.

- المصادر:

- أبو حامد العربي بن علي بن عبد القادر المشرفي الحسني الغريسي. "طرس الأخبار بما جرى آخر الربيعين من القرن الثالث عشر للمسلمين مع الكفار في عتو الحاج عبد القادر وأهل دائرته الفجار"، مخطوط خاص من أرشيف الشيخ المهدي البوعبدلي.

- أبو حامد العربي بن علي بن عبد القادر المشرفي الحسني الغريسي. "ياقوتة النسب الوهاجة وفي ضمنها التعريف بسيدي أمحمد بن علي مولى مجاجة"، مخطوط خاص من أرشيف الشيخ المهدي البوعبدلي.

- العربي المشرفي. (2012) "اليواقيت الثمينة الوهاجة في التعريف بسيدي محمد بن علي مولى مجاجة"، تحقيق، حمداو بن عمر، العربي بوعمامة، بيروت، كتاب ناشرون.

- أبو عبد الله الأعرج السليماني، (د.ت). زبدة التاريخ وزهرة الشمارخ، تحقيق د.حساني مختار، الجزائر، المكتبة الوطنية الجزائرية.

- المازري بن عودة، (1988). طلوع سعد السعود في أخبار وهران ومخزنها الأسود، تحقيق د. يحيى بوعزيز، بيروت، دار الغرب الإسلامي.

- مذكرات الأمير عبد القادر، تحقيق د. محمد الصغير بناني، د. محفوظ سماتي، د. محمد الصالح أوجوت، الطبعة الأولى (1998)، الجزائر، دار الأمة.

- Yver (G), (1912). Les correspondances du capitaine Dumas consul de France a Mascara 1837-1839, 1^{er} édition, Paris.

- المراجع:

- الجيلالي عبد الرحمن، (1994). تاريخ الجزائر العام، ج4، ط7، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية.

- العربي إسماعيل، (1982). المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر، ط2، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

- الشيخ المهدي البوعبدلي، (1983). وثائق أصلية تلقي أعضاء على حياة الأمير عبد القادر، مجلة الثقافة عدد 75، (خاص)، الجزائر، ص ص 46-71.

- سعد الله أبو القاسم، (1998). تاريخ الجزائر الثقافي 1830-1954، ج8، بيروت، دار الغرب الإسلامي.

-Cour (A), (1918). la poésie populaire politique au temps de l'emir Abdelkader, In Revue Africaine, N° 54, pp.458-493.

- La chref (M), (1979). Algérie Nation et société, Algérie, S.N.E.D.